ترجمة وتحليل :

الخلود

لشاعر الحب والجمال الروسيين

ترجمة الأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

[تتمة]

وهذه البصيرة التي تشهد الإله باطناً في كل شيء ، ظاهراً من كل مكان ، ترى فوق ذلك أن العالم — بحبه وجاده — ما ينفك باحثاً عن الله ، ناشداً نجواه ، حريصاً على عرفان صفاته ، والتقرب إلى ذاته ؛ وأنه بجماله ونظامه وإحكامه صورة تحكي جمال خالقه ، وحكمة مدبره ، وقدرة صانعه ، ومرآة تنعكس فيها معاني رحمته ورأفته ، وفضله وكرمه . فالنهار لا يشع بنور الشمس وإنما يشرق من نظرات الإله ، والحسن لا يرثه المرء عن أبويه وإنما يفيض من بسمات الله ؛ فإذا ما ابتسم راضياً عن العبيد ، أذن لمولود جميل سعيد ، أن يبهر هذا الوجود !

فما أجدر القلب الذي ينبض بإذن الله أن يعبده ويهواه !

« إن هذا العالم الذي ينشد الوصول إلى كمال صفاتك
صورة تحكي جمالك ، ومرآة تعكس مزاياك :
فالنهار يفيض من نظراتك ، والحسن يفيض من بسماتك ،
والنفس في كل مكان تلقاك ، والقلب أينما كان يهواك ! »

بيد أن هذا الإله الحي القيوم ، القدير الرحيم ، لو اجتمعت لفطر السليمة والأرواح الصافية على أن تصفه لا تستكمل وصفه ولو كان بعضها لبعض ظهيراً ؛ وإن العقول البشرية لأعجز من أن تدرك مزاياه الحسنى : فهي كلما شرعت تصفه أدركها الكلال ، وكلما أخذت تتكلم عنه غلبها الصمت ، وكلما طفقت تتحرك نحوه وزحت تحت ذاته القاهرة ؛ فتستكين وتشعر بضعفها ثم لا تجد الراحة بعد كلالها إلا في طمأنينة الوجدان ، ولا تطيق الكلام بعد سكوتها إلا بألفاظ الحمد والتقديس ، ولا تستطيع الحركة بعد جمودها إلا بالقيام والركوع والسجود .

« لا يستكمل وصفَ اسمك كلُّ هذه المزايا الباهرة
أيها القيوم الأزلي المقتدر الحبيب !
والروح — وهو رازح تحت ذاتك القاهرة —
يقدس قدرتك حتى في صمته الرهيب ! »

ومهما قدس الروح قدرة الله ، ومهما جدَّ في البحث عنه وأناق اليد بذاته وخضع له في جميع أحواله ، فلن يُسلمه شيءٌ من ذلك إلى أكثر من أن يحبه حباً يملك عليه مشاعره ويزيد شوقه وحنينه ؛ فيستحيل هذا الحب في النفس الشاعرة ناراً مضطرمة لا تتراجع دون باب الله مهما طردت عنه حتى يؤذن لها بالدخول فيأخذ لهيبها في الانطفاء حين ترى عن قرب بعض صفات هذا الخالق العظيم .

« رباه ! ما زال يأتي إليك بذاته
هذا الروح المحطم خاضعاً لإرادتك الأزلية .
ولما ضاق بالحب شاعراً أنه ختام حياته ،
التهب لعرفان صفاتك القدسية ! »

هذه صلاة الروح في معبد الطبيعة : ألحانها من السماء ، ونورها من الله ، وينبوعها الشعور والوجدان .

ومثل هذه الصلاة الروحية كثيراً ما صفا بها قلبا لامرتين وحبيبته ، فانطلقا على نغماتها إلى العالم المجهول الذي يتخيلان الوصول إليه ، فيجثوان بين يدي الإله الرحيم ، ويصليان لوجهه الكريم ، ويدعان الصباح والمساء يحملان إليه أنفاسهما الطاهرة ثم يستشعران في سكرتهما البون الشاسع بين السماء والأرض ؛ فما الأرض إلا سجن أو منفى ، وما السماء سوى المأمن والمأوى .

« ولما خفتت القول استجمع أنفاسنا قلبانا
إلى عالم مجهول حققته الآمال ،
ودأب الصباح والمساء ينشدانه نجوانا
ونحن جاثيان أمامه بالندى والآصال ؛
فرأت عيوننا الأرض منفانا والسماء مثوانا
وهي سكرى في نشوة ما تزال ! »

ومع ذلك فما هذه الصور الرائعة التي تبدو لعيني الشاعر في سكرته الروحية سوى نشوة ما أسرع ما تزول ؛ والروح كلما شرد هذا الشرود ، ورأى هذه الرؤى وثب ثائراً هائجاً وراح يضرب الجسد الذي يحبه ، ويريد أن يتخلص منه إلى الأبد لينتقل من

هذه الأخيلة الكواذب إلى عالم الحقيقة الخالد . وهذا ما حرك نفس الشاعر وحمله على التأوه والأنين ، وعلى التضرع إلى الله أن ينعم على الروح بفصله حقاً عن الجسد وإطلاقه من قيوده حين يكونان فى مثل هذه السكرة لكيلا يرتدا بعدها إلى الصحو الذى ليس فيه سوى الواقع المر الأليم .

« وفى هذه اللحظات التى يثب فيها الروح الشرود ،
ويود لو حطم الصدر الذى يحبسه ويخنقه ...
أواه ! لو استجاب لنا الإله من أعلى الوجود ،
فضرب كلاً منا ضربة تفصله وتطلقه ... »

يتمنى لامرتين هذا فى تأوه وأنين ، لأنه يتوقع السعادة يوم تنفصل الأرواح عن الأبدان !

فالأرواح ما دامت أجسادها تكبلها بأغلال من عظام ولحم وشحم وعروق وشرايين ، وتكلفها ما لا تقتضى مطالبه من طعام وشراب ومشتهيات ، لن تستطيع أن تتحرك قيد أنملة ؛ بل ستبقى محجوزة عن كل ما تريد ، محجوبة عن كل ما ترغب !

وما بالأرواح رغبة فى حطام فانٍ أو مادة زائلة ، إنْ تريد إلا أن تسرى فى العوالم أنى تشاء ، وأن تجتاز حزنها وسهلها ، وعاليها وسافلها ، وظاهرها وباطنها ؛ وأن تسرح من سماء إلى سماء فترى ما ينشاها وتسمع موسيقاها وأن ترق فى لمح البصر إلى موطنها الأول روضة الخلود ، وإلى ينبوعها الذى لا ينضب روح الإله ؛ وأن تطير على جناح الحب فى فضاء واسع لا يحده البصر ، ولا ينتهى فى الزمان ولا المكان ؛ وأن تفيض فى طيرانها ما حولها كما يفيض شعاع الشمس فى سطوعه كل شىء ؛ وأن تنفذ أخيراً إلى نفس الخالق وتمتزج فيها إلى الأبد امتزاج الأنفاس ، ثم تهدأ بعد ثورتها ، وتأنس بعد وحشتها ، وترى الحقيقة بعينها بعد أن ذهلت كثيراً فى دنيا الخيال .

ولو استجاب الله دعاء لامرتين ودعاء أمثاله .

« إذن لاجتازت أرواحنا العوالم فى مسراها
وهى ترق بوثبة واحدة إلى ينبوعها الثرار ،
ولامتدت على جناح الحب فى فضاء لا يتناهى
كأنها شعاع من أشعة النهار ،
ثم امتزجت إلى الأبد فى نفس من براها
بعد أن تصل إليه ولها مستطار ... »

والشعراء مهما استغرقوا فى أخيلتهم لا بد للشك أن يغزو قلوبهم ؛ وما هو إلا أن يصحوا من سكرتهم ، ويصرخوا فى وجه الأقدار مستنكرين ما تكتب أيديها ، ومستفهمين عن ما تبيته لياليها ؛ فهل هى خادعتهم عن أمانيهم وضاحكة من آمالهم أم ستجعل أخيلتهم حقائق ، وأحلامهم واقعات ؟

وكذلك فعل لامرتين ... فإنه لما أحس استغراقه فى خياله عاد إلى الأقدار يسألها : هل الكائنات مولودة للفناء ؟ ثم يسألها بشىء من المرارة : هل ستفنى النفس مع الجسد إذا قضت عليها الشركة أن تقاسمه الموت ؟ وهل سيبلع القبر فى جوفه هذه النفس فى ظلام الليل ؟ وما تصير بعد فنائها ؟ أتستحيل غباراً متناثراً ، أم تطير فوق الأحياء ، ثم تذهب فى الفضاء ؟

وفى هذه الأسئلة حيرة الشاعر وتردده ، وفيها خوفه على مصيره ورهبته من عاقبته وعواقب الناس .

« أيتها الأقدار ! هل خدعتنا أمانينا ؟
وهل الكائنات مولودة للفناء ؟
وهل يبلع القبر آناء ليالينا
نفساً تقاسم جسدها حكمَ القضاء ؟
وهل تصير غباراً أم تطير حوالينا
ثم تتلاشى كصوت ذاهب فى الفضاء ؟ »

وحين يختم لامرتين هذا اللحن الحزين فى هذه القصيدة العصماء يأبى إلا أن يصرح بأن الروح الذى خاطبه وناجاه لم يكن سوى حبيبته (چوليا) فتراه يتغنى باسمها فى البيت الأخير ، مستعلماً منها عما امتنعت الأقدار من إعلامه به ، إذ يسألها بعد أن فاضت أنفاسها وفارقت دنياها : هل بقى على حبها شىء مما أحبت ؟ وهل تشعر بحب هذا القلب على العهد أم تريد على وفائه موثقاً ودليلاً ؟ ثم يسلى لها أنه يهبها حياته ، ويرجو أن تشهد عماله مقابل شىء واحد : هو أن تشعر بحب هذا الذى أخلص فى حبها فيكون شعورها برهاناً على خلودها ويكون خلودها جواباً لسؤال خطير طالما خبأته الأقدار ، وعوذته بالأسرار .

« بعد أن فاض نفسك يوم الوداع الأخير
ألم يبق شىء يحببك من كل ما كنت تحبين ؟
أواه ! لن أسأل سواك هذا السر الخطير ،
فانظرى يا چوليا مرت حبيبك تم أجيبين ! »

وهكذا عاد الشاعر إلى خياله ، واستمسك بآماله ، وختم قصيدته بمعانى الخلود ...

صبحى ابراهيم الصالح